٣٩ قَدْ فَعَلْتُ

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ قَالَ : لما نزلَتْ هَذِهِ الآيةُ ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴿٢٨٤﴾﴾ (البقرة) قَالَ : دَخَلَ قُلُوبَهُمْ منها شَيْءٌ لَمْ يدخُلْ قُلُوبَهُم مِنْ شَيء ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ :«قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطعْنَا وسلَّمنا. قال: فألقَى اللهُ الإيمانَ فى قُلوبِهِم ، فَأنزلَ اللهُ تَعالَى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾. (البقرة ٢٨٦)

قَالَ : قَدْ فعلْتُ.

﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا(١) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)

قَالَ : قَدْ فعلْتُ.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)

قَالَ : قَدْ فعلْتُ (٢).

---

(١) الإصر: القيد والثقل والعهد المؤكد ، وسميت التكاليف الشاقة إصراً لأنها تشق على المكلف وتثقل عليه. (القاموس القويم ١/ ٢١)

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢٦) ، والترمذى فى سننه (٢٩٩٢) ، وأحمد فى مسنده(١/ ٢٣٣) . قال الترمذى : هذا حديث حسن.

إن حسابَ الحق دقيق عادل ، فالذين ثَقُلَتْ كِفَّة أعمالهم الحسنة هم الذين يفوزون بالفردوس ، والذين باعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تثقل كِفَّة أعمالهم السيئة ، فصاروا من أصحاب النار.

والحق سبحانه يطلب منَّا أن نكون دائماً على ذِكْر من قضية واضحة، هى: أن الكون كله لله ، والبشر جميعاً بذواتهم ونفوسهم وما ظهر منها وما بطن لا يخْفى على الله ؛ لذلك قال تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ..﴿٢٨٤﴾﴾ (البقرة)

فلن يخرج كائن مَنْ كان عن مُلْكه سبحانه ، وما دام كل شىء فى الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراده سبحانه ، فكل شىء فى الوجود هو مِلْكٌ لله ، وهو يتصرّف بقدرته فيما يملك.

فإياكم أنْ تظنُّوا أن هناك مَهْرباً أو مَحِيصاً أو مَعْزلاً أو مفراً ، فلله ما فى السموات وما فى الأرض ، فلا السماوات تُؤوِى هارباً منه ، ولا مَنْ فى السماوات يعاون هارباً منه ، فسبحانه المحيط عِلْماً بكل شىء ، والقادر على كل شىء.

والحق سبحانه وتعالى يصف نفسه ، فيقول: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأنعام)

إنه إله واحد يعلم السِّرَّ والجهر ، ويترتب على هذا أساسُ الثواب والعقاب ، فلا تظن أيها الإنسان أنكَ تُفلِت من حساب ربك ، وإنْ كان سبحانه يعلم السر فمن باب أَوْلَى أن يعلم الجهر.

إنه سبحانه وتعالى يعلم السر من قبل أن يكون سِراً ، وكل أمر قبل أنْ يصبح جهراً يكون سِراً ، وقبل أنْ يكونَ سِراً هو أخفى من السر.

والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تَمَّ تسجيله علينا ، إن كل إنسان يقرأ كتابه بنفسه ، فسبحانه يقول:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ (الإسراء)

والحساب معناه أن للإنسان رصيداً ، وعليه أيضاً رصيد ، يقول تعالى :

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ (الأعراف)

إذن : نحن أمام نوعيْن من البشر ، هؤلاء الذين ثقُلَتْ كِفَّة الخير فى ميزان الحساب ، وهؤلاء الذين ثقلت كفة السيئات والشرور فى ميزان الحساب، فماذا عن الذين تساوت الكِفَّتان في أعمالهم ، فاستوت حسناتهم مع سيئاتهم؟

إنهم أصحاب الأعراف الذين ينالون المغفرة من الله ؛ لأن مغفرة الله وهو الرحمن الرحيم قد سبقتْ غضبه جَلَّ وَعلاَ ، ولو لم يجىء أمر أصحاب الأعراف فى القرآن لقال واحد: لقد قال الله لنا خبر الذين ثقلت موازينهم ، وأخبار الذين خفَّتْ موازين الخير عندهم ، ولم يَقُلْ لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم.

لكن الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر ، وأوضح لنا أن المغفرة

تسبق الغضب عنده ؛ لذلك فالحساب لا يكتفى الحقُّ فيه بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق ؛ لذلك يُطمئننا الحق سبحانه فيقول:

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الفرقان)

إن الحق سبحانه يطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده في كِفَّة الميزان ، ويطمئننا أيضاً على أنه سبحانه سيجازينا على ما أصابنا من شر الأشرار ، وأننا سنأخذ من حسناتهم ، لِتُضاف إلى ميزاننا.

إذن: فالطمأنينة جاءت من طرفَيْن: طمأننا الحق على ما فعلناه من خير ، فلا ينُسى أنه يدخل في حسابنا ، وطمأننا أيضاً على ما أصابنا من شَرِّ الأشرار ، وسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا.

إن هذه المسألة تحتاج إلى دِقَّة بالغة ؛ لأننا وجدنا بعضاً من صحابة رسول الله ﷺ قد وقفوا فيها موقفاً أبكى بعضهم.

فهذا عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ حين سمع هذه الآية قال: لئن آخذنا الله على ما أخفَيْنا فى نفوسنا لنهلكن ، وبكى حتى سُمع نشيجه بالبكاء(١).

وبلغ ذلك الأمر ابن عباس فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن ، لقد وجد إخوانُه المسلمون مثلما وجد من هذه الآية (٢) .

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٣٨) أثر عبدالله بن عمر.

(٢) قال ابن مرجانة : فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس : يغفر الله لأبى عبدالرحمن، لعمرى لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبدالله بن عمر. ذكره ابن كثير في تفسير الآية (١/ ٣٣٨).

فأنزل الله بعدها قوله : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٢٨٦)﴾ (البقرة)

فالحق سبحانه لم يُكلّفكم إلا ما هو فى الوُسْع ؛ لأن الأحداث بالنسبة لعزم النفس البشرية ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو مَا لا قدرةَ لنا عليه ، وهذا بعيد عن التكليف.

القسم الثانى: لنا قدرة عليه ، لكن بمشقة ، أى : يجهد طاقتنا قليلاً.

القسم الثالث: التكليف بالوُسْع.

إذن: فالحقُّ سبحانه لا يُكلِّف النفس إلا بتكليف تكون فيه طاقتها أوسع من التكليف ، كلَّف الحقُّ كلَّ مسلم بالصلاة خمسة فروض كُلَّ يوم ، وتملأ أوقاتها بالصلاة ، وكان من الممكن أن تكون عشرة ، بدليل أن هناك أناساً تتطوع ، وهو سبحانه كلَّف كل مسلم بالصوم شهراً ، أَلاَ يوجد مَنْ يصوم ثلاثة أشهر؟ ومثل هذا فى الزكاة ، فهناك مَنْ كان يخرج عن ماله كله لله ، ولا يقتصر على ما يجب عليه من زكاة.

إذن : فهذا فى الوُسْع ، ومن الممكن أن تزيد ، فكل التكاليف التى كلَّفنا الله بها فى وُسْعنا ، وأقل من وُسْعنا ، بدليل أن المشرِّع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليف ليس فى الوُسْع.

ومثال هذا قوله تعالى عن الصيام : ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ(١٨٥)﴾ (البقرة)

فعليك أن تتقى الله ما استطعت بما كان في استطاعتك من الوُسْع ،

وساعة تكون غير مستطيع فهو سبحانه الذى يُخفِّف ، إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجاً عن استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجاً عن استطاعتك ، فالله هو الذى يُخفِّف عنك.

ولذلك ، فعلى الإنسان ألاَّ يستخدم القول الحق: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ۝٢٨٦﴾ (البقرة) ، فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يُقدِّر الوُسْع ، ثم يبنى التكليف على الوُسْع ، بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس، وهو الذى أنزل التكليف لوُسْع النفس ، وما دام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوُسْع النفس حينما قرر لها المنهج.

إن الله قد كلفك فهو عليمٌ بأن ذلك فى وُسْعك؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وُسْعها ، ونحن نسمع الآن صيحات تقول : إن العصر لم يَعُدْ يحتمل ، وأن ظرف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هى تبرير أنه ليس فى وُسْعنا أنْ نُؤدِّى بعض التكاليف.. ربما كان هذا التكليف في الوُسْع في الماضى عندما كانت الحياة بسيطة ، وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة.

نقول لمن يردد هذا الكلام : إن الذى كلَّفك قديماً هو الله سبحانه وتعالى، إنه يعلم أن في وُسْعك أن تؤدى التكليف وقت نزوله ، وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة ، والدليل على ذلك أن هناك مَنْ يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل فى باب الإحسان.

فهناك مَنْ يصلى الفروض وهى التكليف ، وهناك مَنْ يزيد عليها السنن، وهناك مَنْ يقوم الليل فيظل يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض.

وهناك مَنْ يصوم رمضان ، ومَنْ يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية ، أو كل اثنين وخميس على مدار العام أو فى شهرَىْ رجب وشعبان .

وهناك مَنْ يحج مرة ، ومَنْ يحج مرات... وهناك مَنْ يلتزم بحدود الزكاة ، ومن يتصدق بأكثر منها.

إذن : كل التكاليف التى كلفنا الله بها فى وُسْعنا وأقل من وُسْعنا ، ولا يقال : إن العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكاليف ، ونزيد عليها دون أىٍّ مشقة.

وعندما يطرأ على الإنسان ما يجعل الحكم فى غير الوُسْع ، فإن الله يُخفِّف التكليف ، فالمسافر تقول له الشريعة: أنت تخرج عن حياتك الرتيبة ، وتذهب إلى أماكن ليس لك بها مُسْتقر ؛ لذلك يُخفِّف الحق عليك التكليف ، فَلَكَ أن تفطر في نهار رمضان ، ولك أنْ تقصُرَ الصلاة.

والحق سبحانه يعلم أن الوُسْع قد يضيق ؛ لذلك فإنه جَلَّ شأنه يخفف حكم التكليف ، ويمنح الرخص عند ضيق الوُسْع ، ومثال ذلك قول الحق تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ

يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ(٦٥)﴾ (الأنفال)

فكان المقاتل المسلم مطالباً بأن يقاتل عشرة من الكافرين ، فكانت النسبة واحداً إلى عشرة ، ولكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ خفف هذا الحكم ، فقال تعالى:

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾ (الأنفال)

ونحن نعلم أن هناك شروطاً للمقاتل ، أولها : أن يكون المقاتل قوىَّ البدن وقوىَّ الإيمان ، وعلى دراية بحيل الحرب وفنونها ، بحيث يستطيع أن يناور ، ويُغيِّر مكانه في المعركة ، ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا تحسمها معركة واحدة ، بل لابُدَّ من كرّ وفرّ ، وإقبال وإدبار ، وخداع للقتال ومناورات ، مثلما فعل خالد بن الوليد فى كثير من المعارك.

إذن : فلكَيْ تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين ، لا بُدَّ أن يتحقق فى هؤلاء جميعاً قوة بدن وصبر وجَلَد ، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجَلَد ضعيفاً ، وقد تأتى للإنسان فترات ضعف ، وتأتيه أيضاً فترات قوة.

ومن رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ بالمؤمنين أنه خفَّف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات ضعف تصيب الإنسان ؛ لذلك جعل النسبة واحدا إلى اثنين.

والحق سبحانه يقول على لسان عباده المؤمنين:

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا..(٢٨٦)﴾ (البقرة)

ولقائل أن يقول : إن الرسول ﷺ طمأننا ، فقال : «رُفِع عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وما استُكرِهوا عليه» (١). فكيف يأتى القرآن بشىء مرفوع عن الأمة الإسلامية ليدعو به الناسُ ربهم ليرفعه عنهم؟

على مثل هذا القائل نردُّ : هل قال أحد : إن رَفْع الخطأ والنسيان والاستكراه كان من أول الأمر ؟ لعل الرفع حدث بعد أنْ دعا الرسول والسابقون من المؤمنين ، فما دام قد رُفع فمعنى ذلك أنه كان موجوداً. إذن: فلا يقولَنَّ أحد: كيف تدعو بشىء غير موجود؟

أو : أن ذلك يدل على منتهى الصفاء الإيمانى ، أى : الله يحب ألاّيعصَى إلا خَطأ أو نسياناً ، وأن الله لا يصحّ ولا يستقيم أن يُعصى قصداً ؛ لأن الذى يعرف قَدْر الله حقاً لايليق منه أن يعصى الله إلا نسياناً أو خطأ ؛ لأن الخالق هو المنعم بكل النعم ، وبعد ذلك كلفنا ، وكان يجب ألاَّ نقصد المعصية .

ولذلك ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد سمَّى ما حدث من آدم معصية ، مع أنه يقول : ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** (١١٥) ﴾ (طه).

وسمَّى الله النسيان فى قصة آدم معصية ﴿**وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ**(١٢١)﴾ (طه) ، فكان النسيان أولاً معصية ، ولكن الله أكرم أمة محمد ، فرفع عنها النسيان ، وفى مسألة آدم : هناك ملحظ يجب على المؤمن أن يتنبه إليه ، فآدم

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (٢٠٤٥) والدارقطني فى سننه (٤/ ١٧٠)والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتى: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

خُلِق بيد الله ، ونحن مخلوقون بقانون التكاثر ، وآدم تلقَّى التكليف من الله مباشرة وليس بواسطة رسول ، وكُلِّف بأمر واحد ، وهو ألاَّ يأكل من الشجرة.

فإذا كان آدم مخلوقاً من الله مباشرة ، ومكلفاً من الله مباشرة ، ولم يُكلَّف إلا بأمر واحد ، وهو ألاَّ يقربَ هذه الشجرة ، ولم تكن هناك تكاليف كثيرة ، فماذا نسى؟ وماذا تذكَّر؟ إنها معصية إذن.

لقد كان النسيان بالنسبة لآدم معصية ، لأنه مخلوق بيد الله ؛ لذلك لم يكُنْ من المناسب أن ينسى هذا التكليف الواحد ، وما كان يصح له أنْ ينسى ، ولعل سيدنا آدم نُسِّي لحكمة يعلمها الله ، ربما تكون ليعمر الأرض التى جعله الله خليفة فيها.

أما بالنسبة لأمة محمد ، فحينما نقول: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴿٢٨٦﴾﴾(البقرة) فكأننا يا رب نقدرُك حق قَدْرك ، ولا نجترىء على عصيانك عمداً ، وإنْ عصينا فإنما يكون العصيان نسياناً أو خطأ ، وهذه معرفة لقدر الحق سبحانه وتعالى.

ولكن ، ما النسيان؟ وما الخطأ ؟

فالخطأ كأن يقصد الإنسان شيئاً ويحدث غيره ، أما النسيان فهو ألاَّ يجىء الحكم على بال الإنسان.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك.

﴿**رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا** ﴿٢٨٦﴾﴾(البقرة)

والإصْر: هو الشىء الثقيل الذى يثقُل على الإنسان. ومن ذلك الإصر

الذى نزل على اليهود : إنْ أردتم التوبةَ فاقتلوا أنفسكم ، أو تصدَّقوا ، أو زكُّوا بربع أموالكم.

وقد قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة)

وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى هذا ، جعل موسى بنى إسرائيل يقفون صفوفاً ، وقال لهم : إن الذى لم يعبد العجل يقتل مَنْ عبده ، ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشقُّ عليه التنفيذ ، فرحمهم الله بأن بعث ضباباً يسترهم حتى لا يجدوا مشقة فى تنفيذ القتل. وقيل : إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفاً [1].

والحق يوضح أن الإسلام لم يَأتِ بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التى كانت التوبة فيها تقتضى قتل النفس ، تلك الشرائع التى رأت أن النفس تغوى صاحبها بمخالفة المنهج فلا بُدَّ أن يضيعها.

ومن لُطْف الله أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم ، ولذلك فسيدنا عبدالله بن مسعود ، وسيدنا عمار بن ياسر وثابت بن قيس ، كل هؤلاء قالوا : والله لو أُمِرْنا بهذا لفعلنا.

وقال سيدنا عمر: والله لو أُمِرْنا بهذا لفعلنا ، والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك. إذن: فهذا لُطْف ، إنه بيَّن لهم: لوكتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى ، ماذا كانوا يفعلون؟

(١) انظر الروايات التى وردت فى هذا فى تفسير ابن كثير (١/ ٩٢ ، ٩٣).

لكن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ استجاب لدعائهم:

﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)

لقد استجاب الحق سبحانه لهم ، ولم يعاملنا كما عامل الأمم السابقة علينا.

وعندما نقول : ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فنحن نُصدّق أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله :نعم». ومعنى «قال الله : نعم» أنه سبحانه وتعالى أجاب الدعاء برفع المشقة عن الأمة.

أى : أن الله لن يُحمّلنا ما لا طاقة لنا به.

وعندما نقول : ﴿وَاعْفُ عَنَّا ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)

فنحن نتوجه إلى الله ضارعين : أنت يا حقُّ تعلم أننا مهما أُوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى فلن نستطيع أنْ نُؤدِّى حقّك كاملاً ؛ ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أنْ تعفو عنا.

ومعنى العَفْو مَحْو الأثر ، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة ، وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر ، كأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب.

ولنتعلم ما علَّمه رسول الله ﷺ لعائشة أم المؤمنين ، لقد سألت رسول الله إذا صادفتْ ليلة القدر فقالت : إنْ أدركتنى هذه الليلة بماذا أدعو؟

انظروا إلى رسول الله ﷺ ، لقد علَّم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع ، فقال لها: «قولى : اللهم إنك تحب العفو فاعف عنى»(١).

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولايوجد خَيْر أحسن من العفو.

وعندما تقول : «واغفر لنا» فأنت تعرف أن من مظاهر التكوين البشرى النية التى تريد أنْ تُحوِّل العزم إلى حيِّز السلوك والانفعال النزوعى ، فالمسألة تحتاج منك إلى تدريب ، ومثال ذلك : عندما يذنب واحد فى حقِّك فَلَكَ أنْ تردَّ عليه الذنب بالذنب ، ولك أنْ تكظِم الغيظ ، لكن يظلّ الغيْظ موجوداً وأنت تحبسه. ولكَ أنْ تعفو.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)**﴾ (آل عمران)

فإنْ أساء أخوك إليك سيئة ، فإما أنْ تردَّ بالمثل ، أو تكظم الغيظ ، أو ترقىَ إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ، لأنك إذا كنت قد ارتكبتَ سيئة ، وعلمتَ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يغفرها لك ، ألاَ تشعر بالسرور.

إذن : فما دُمْتَ تريد أنْ يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك فى حقك؟ وقد جعل الحق سبحانه عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى،

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٦/ ١٨٣ ، ٢٥٨) ، والترمذى فى سننه (٣٥١٣) وكذا ابن ماجه في سننه (٣٨٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المسيء والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة.

ولو اقتصصتَ أنت مِمَّنْ أساء إليك ، فقصاصك على قَدْر قوتك ، أما إنْ تركته إلى قدرة الله تعالى ، فهذا أصعب وأشقّ ؛ لأنك تركته إلى قوة القوى ، وهكذا ينال العافى عن المسيء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله سبحانه وتعالى فى جانبه.

لكن ، ماذا عن مِثْل هذا الأمر بالنسبة للخالق الذى له كمال القدرة؟ إن الله قد لا يُعذِّب العبد لمذنب ، ولكنه قد يظلّ غاضباً عليه ، ومَنْ مِنّا قادر على أنْ يتحمَّل غضب الرب؟

لذلك نطلب المغفرة ونقول «واغفر لنا وارحمنا» فنحن ندعوه سبحانه ألاَّ يدُخِلنا في الذنب الذى يُؤدِّى إلى غضبه ـ والعياذ بالله ـ علينا. فالعفو هو أن نرتكب ذنباً ، ونطلب من الله المغفرة ، ولكن الرحمة هى الدعاء بألاَّ يُدخِلناَ فى الذنب أصْلاً.

وعندما يقول الحق سبحانه: ﴿**أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (البقرة). فهذا اعتراف بعبوديتنا له ، وأنه الحق خالقنا ومُتولِّى أمورنا وناصرنا ، وما دام الحق هو ناصرنا فهو ناصرنا على القوم الكافرين .

يقول تعالى : ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...** ﴿٢٥٧﴾ ﴾ (البقرة)

فهو يريد من الذين آمنوا أنْ يجعلوا إيمانهم شيئاً واحداً ، وليسوا متعددين ، أو أن ولاية الله لكل فرد على حِدَةٍ تكون ولاية لجميع المؤمنين ، وما داموا مؤمنين فلا تضاربَ في الولايات ؛ لأنهم كلهم صادرون وفاعلون عن إيمان واحد ، ومنهج واحد ، وعن قول واحد ، وعن فعل واحد ، وحركة واحدة.

إنه وليُّهم أى : ناصرهم ومُحبّهم ومُجيبهم ومُعِينهم ، هو وليهم بما أوضح لهم من الأدلة على الإيمان ، هل هناك حُبٌّ أكثر من هذا ، هل تركنا لنبحث عن الأدلة ، أو أنه لفتنا إلى الأدلة ؟

وتلك هى ولاية من ولايات الله ، فقبل أن نؤمن أوجد لنا الأدلة ، وعندما آمنا والانا بالمعونة ، وإنْ حاربنا خصومنا يكُنْ معنا ، وبعد ذلك تستمر الولاية إلى أن يعطينا الجزء الأوْفَى فى الآخرة.

إذن: فهو ولىٌّ فى كل المراحل ، بالأدلة قبل الإيمان ولىّ ، ومع الإيمان استصحاباً يكون ناصرنا على خصومنا وخصومه ، وفى الآخرة هو ولينا بالمحبة والعطاء ، ويعطينا عطاء غير محدود. إذن : فولايته لا تنتهى.